دلّت التجربة في الحياة الدنيوية على أنّ كلّ ما يطلبه الإنسان تكون النتيجة هي العكس، ولذلك أطلب بعد الأحبّة ليكون المآل، قُربهم وعدم مفارقتهم وأطلب سكب الدموع (الحزن) لتكون النتيجة هي السرور.

كنّى بسكب الدموع عما يوجبه الفراق من الحزن وأصاب؛ لأنّ البكاء يكنّىٰ به عنه، وقد أصاب فيه.

وكنّى عمّا يوجبه التلاقي من السرور، بجمود العيون فاخطأ لأنّه لا يكون كناية عن المسرّة بل عن البخل .

يقول جلال الدين السيوطي في المقام:

وفي الكلامِ فَقدُه في الظاهرِ لِضَعفِ تأليفٍ وللتنافرِ
في الكلماتِ وكذا التعقيدَ مَعْ فصاحةٍ في الكلماتِ تُتبع[1]

***

والحق أن يقال: إنّ الركن الركين في فصاحة الكلمة هو كونها عذبة مألوفة الاستعمال، كما أنّ الركن الركين في فصاحة الكلام هو تلاؤم الكلمات في الجمل، فإنّه يوجب حسن الكلام وسهولته في اللفظ، فعندئذٍ تقبل النفس ما يرد عليها بصورة حسنة ودلالة واضحة. وهذا ما أُشير إليه سابقاً من خلوّه من تنافر الحروف في فصاحة الكلمة، وتنافر الكلمات في فصاحة الكلام .

وإنّ شئت قلت: إنّ العذوبة في الكلمة والتلاؤم في الكلام هو الأساس

---

١. عقود الجمان: ٥.

في الفصاحة، وأمّا كون الكلام نقيّاً عن مخالفة القياس في فصاحة الكلمة أو نقيّاً عن ضعف التأليف في فصاحة الكلام فهما في الدرجة الثانية من الأهمية في الفصاحة، فإنّ جمال الكلمة والكلام أشبه بإناقة الخط وجماله، فإنّ الإنسان يرغب إلى قراءته، بخلاف ما لو كُتب ذلك الكلام بخط رديء.

فالإنسان الذي يلتذ بصوت البلبل ويضجر من أصوات البوم والغربان، فذلك الإنسان ينبو سمعه عن الكلمة إذا كانت غريبة متنافرة الحروف، ويرتاح لخلافها، ألا ترى أنّ كلمتي: المزنة والديمة، للسحابة الممطرة كلتاهما سهلة عذبة، ترتاح لهما النفس، بخلاف كلمة البعاق الّتي في معناهما، فالنفس تنفر منها، حيث إنّها تصكّ الآذان. ومثلها تنافر الكلمات في فصاحة الكلام.

وإن أردت أن تقف على الكلام الفصيح بالمعنىٰ الّذي ذكرناه، فاستمع إلى كلام الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في تعريف الإنسان، قال: «أَمْ هٰذَا الَّذِي أَنْشَأَهُ فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، وَشُغُفِ ٱلْأَسْتَارِ، نُطْفَةً دِهَاقاً ، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعاً، ثُمَّ مَنَحَهُ قَلْباً حَافِظاً، وَلِساناً لَافِظاً، وَبَصَراً لَاحِظاً، لِيَفْهَمَ مُعْتَبِراً، وَيُقَصِّرَ مُزْدَجِراً. حَتَّىٰ إِذَا قَامَ ٱعْتِدَالُهُ، وَٱسْتَوَىٰ مِثَالُهُ، نَفَرَ مُسْتَكْبِراً، وَخَبَطَ سَادِراً، مَاتِحاً فِي غَرْبِ هَوَاهُ، كَادِحاً سَعْياً لِدُنْيَاهُ، فِي لَذَّاتِ طَرَبِهِ، وَبَدَوَاتِ أَرَبِهِ»[1].

---

١. نهج البلاغة: الخطبة ٨٣.

فإنّ هذه القطعة من خطبته ﷺ سبيكة مرصّعة بيواقيت الكلم، ومعالي معاني الحكم، معدودة من مدهشات كلامه، وقد توفرت فيها جوامع وجوه الحسن، وكأنّ الجميع كماء نهر رقاق يجري على اللسان بلا صعوبة كجري الماء على الأرض السهلة.

***

البلاغة لغة واصطلاحاً

البلاغة في اللغة بمعنى الوصول، يقال: بلغ التمر: إذا نضج.

وفي الاصطلاح عبارة عن مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، أي مطابقته للغرض الداعي إلى التكلّم على الوجه المخصوص، مثلاً: كون المخاطب منكراً للحكم، حال يقتضي تأكيده، والتأكيد مقتضىٰ الحال؛ كما أنّ كون المخاطب مستعدّاً لقبول الحكم، يقتضي كون الكلام عارياً عن التأكيد، والتجرّد عن مقتضاها، وهكذا أنّ الحال إذا اقتضىٰ حذف المسند إليه حُذف، وإن اقتضى ذكره ذُكر.

كما أنّه إذا اقتضى الإيجاز يتبع، ولو اقتضى الإطناب أو المساواة يتبع، ولكلّ مقام، كما أنّه إذا ا قتضى الحال القصرَ والحصرَ فيقصر، بخلاف ما إذا اقتضى خلاف ذلك، كما سيوافيك تفصيل ذلك في الأبواب الثمانية في علم المعاني.

يقول السكّاكي: إنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التشكّر يباين مقام

الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكلٍّ من ذلك مقتضىٰ غير مقتضىٰ الآخر، إذا شرعت في الكلام فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلٍّ حدٌّ ينتهي إليه الكلام مقام، وارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول، وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الّذي نسمّيه مقتضىٰ الحال، فإن كان مقتضى الحال إطلاق الحكم فحسن الكلام تجريده عن مؤكّدات الحكم، وإن كان مقتضى الحال بخلاف ذلك فحسن الكلام تحلّيه بشيء من ذلك بحسب المقتضي ضعفاً وقوة، وإن كان مقتضى الحال طي ذكر المسند إليه فحسن الكلام تركه، وإن كان المقتضي إثباته على وجه من الوجوه المذكورة فحسن الكلام وروده على الاعتبار المناسب، وكذا إن كان المقتضي ترك المسند فحسن الكلام ورده عارياً عن ذكره، وإن كان المقتضي إثباته مخصصاً بشيء من التخصيصات فحسن الكلام نظمه على الوجوه المناسبة من الاعتبارات المقدّم ذكرها، وكذا إن كان المقتضي عند انتظام الجملة مع أُخرى فصلها أو وصلها والإيجاز معها أو الإطناب، أعني: طي جمل عن البين ولا طيها فحسن تأليفه مطابقاً لذلك.[1]

---

١. مفتاح العلوم: ٧٣. وقد أتى في كلامه هذا فهرساً إجمالياً لما يأتي في علم المعاني في أبوابها الثمانية، فانتظر. وإنّما أثبتنا كلامه هنا ليكون القارئ عارفاً إجمالاً لما يبحث عنه في هذا العلم.

وحاصل الكلام: أنّ المقامات مختلفة والدواعي متنوعة يجب أن يكون الكلام على وفق الداعي، يقول جلال الدين السيوطي:

بلاغةُ الكلامِ أنْ يُطابِقا لمقتضىٰ الحالِ وَقَدْ توافقا
فصاحةً والمقتضىٰ مختلفُ حَسبَ مقاماتِ الكلامِ يُؤلفُ[1]

هذا ما ذكره القوم ويمكن أن يقال: إنّ للبلاغة ركناً آخر فما لم يضم إلى ما ذكروه يصبح الكلام مبتذلاً، وهو إتقان المعنى وسموّ المضمون، وإلّا فالمعاني المبتذلة بين الناس إذا عُرضت بشكل مطابق للغرض الداعي إلى التكلّم لا يُعدّ بليغاً راقياً.

ولعلّ من وجوه بلاغة القرآن الّتي وصلت إلى أعلى الدرجات من البلاغة هي إتقان معانيه، وسموّ مضامينه.

حصر علم البلاغة في فنون ثلاثة

حصر علماء البلاغة ذلك العلم في فنون ثلاثة، هي:

المعاني، والبيان، والبديع.

ووجه الحصر هو أنّ البلاغة عبارة عن مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحة ألفاظه، مفرده ومركّبه.

أمّا الثاني أي تمييز الفصيح عن غيره فالغرابة تعرف من متن اللغة، ومخالفة القياس تعرف من علم الصرف (في فصاحة الكلمة)، وضعف

---

١. عقود الجمان: ٦.

التأليف يعرف من علم النحو، والتنافر يعرف بالحس (في فصاحة الكلام)، فاستُغني عن ذكر هؤلاء في هذا الكتاب، فلم يبق ممّا ترجع إليه البلاغة إلّا أمران:

١. الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنىٰ المراد، أو إيراد الكلام مطابقاً لمقتضىٰ الحال.

٢. تمييز السالم من التعقيد المعنوي من غيره، أو إيراد الكلام على أنحاء وطرق مختلفة في الوضوح والخفاء، تشبيهاً أو مجازاً أو كنايةً. فوضع للأوّل علم المعاني، وللثاني علم البيان.[١]

ثم ربّما يحتاج البليغ إلى معرفة وجوه التحسين في الكلام فوضعوا له علم البديع.

يقول جلال الدين السيوطي:

وَ ما بِهِ عَنْ الخَطأ في التأديةِ مُعترضٌ عِلمَ المعاني سميَّه
وما عَنْ التعقيدِ فالبيانُ ثُمَّ البديعُ مَا بِه استحسانُ[٢]

---

١. قال السكّاكي: وأمّا علم البيان: فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح المعنى عليه وبالنقصان ليحرز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد. مفتاح العلوم، طبعة عام ١٣١٨ هـ، بمصر المحميّة. وسيأتي كلامه حول علم المعاني. فانتظر.

٢. عقود الجمان: ٨.